مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

محاورة شعراء قصيدة التفعيلة العراقيين المعاصرين مع المتنبي للمدة (٢٠٠٣ - ٢٠٢٣) دراسة تحليلية في نماذج مختارة

الباحث. إيمان صادق ناجي الرماحي
أ.د وسام علي محمد الخالدي
جامعة الكوفة/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية

الملخص

تُعدّ محاورة شعراء قصيدة التفعيلة للتراث الشعري، وبخاصة شعر أبو الطيب المتنبي، ظاهرة مهمة في الشعر العربي الحديث، إذ لم يكن هذا التفاعل مجرد استدعاءٍ تقليدي، بل جاء بوصفه إعادة إنتاج للنص التراثي ضمن رؤية معاصرة. إذ اعتمد شعراء التفعيلة على المتنبي بوصفه رمزًا شعريًا متجددًا، لما يمثّله من طاقة لغوية وكثافة دلالية وذاتٍ متعالية. وقد تجلّت هذه المحاورة بعدة أشكال: منها التناص المباشر والضمني، والمعارضة الشعرية والحوار الفكري.. وغيرها..

الكلمات المفتاحية: (المتنبي، المحاورة، شعراء قصيدة التفعيلة).

A Dialogue Between Contemporary Iraqi Free Verse Poets and Al-Mutanabbi (2003-2023): An Analytical Study of Selected Examples

Researcher. Iman Sadiq Naji Al-Ramahi
Professor Dr. Wissam Ali Muhammad Al-Khalidi
University of Kufa/College of Education for Women/Department of Arabic Language

Abstract

The dialogue between free verse poets and the poetic heritage, particularly the poetry of Abu al-Tayyib al-Mutanabbi, is a significant phenomenon in modern Arabic poetry. This interaction was not merely a traditional invocation, but rather a reinterpretation of the classical text within a contemporary vision. Free verse poets relied on al-Mutanabbi as a renewed poetic symbol, given his linguistic power, semantic density, and transcendent self. This dialogue manifested itself in several forms, including direct and implicit intertextuality, poetic opposition, and intellectual dialogue, among others.

Keywords: (Al-Mutanabbi, dialogue, free verse poets).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

محاورة شعراء قصيدة التفعيلة مع المتنبي

لم يكن أبي الطيب المتنبي يوماً شاعر من طراز رفيع فقط؛ وإنما تحوّل بمرور الزمن إلى ظاهرة شعرية وفكرية ألقت بظلالها على أجيال عدّة من الشعراء، وخاصة شعراء العراق المعاصرين. وقد لجأ العديد من شعراء قصيدة التفعيلة إلى استدعائه ومحاورته في نصوصهم، إمّا بوصفه رمزًا للقوة والتمرد والاعتداد بالذات، أو باعتباره مرآة تعكس قضايا الإنسان العربي المعاصر في صراعه مع السلطة أو الهزيمة أو الاغتراب (الغذامي عبد الله، ٢٠٠م: ١١٣)، وهذا ما يفسر استدعاءه المتكرّر في القصيدة الشعرية المعاصرة.

إنّ شعراء قصيدة التفعيلة لا يتعاملون مع المتنبي تعامل التلميذ مع الشيخ أو الأستاذ؛ بل يدخلون معه في محاورة وجدانية وفكرية، يعيدون عن طريقها النظر في الإرث الثقافي، ويحاورون صور البطولة ومفاهيم الذات والهوية. وفي هذا السياق، ترى د. خالدة سعيد أن الشاعر الحديث غالبًا ما "يستحضر رموز الماضي لا ليكرّسها، بل ليعيد بناءها وفق رؤيته الخاصة" (سعيد خالدة، ١٩٧٩: ٩٧).

إن الاستدعاء الحواري للمتنبي في قصيدة التفعيلة يتخذ بعداً جدلياً يتجاوز الإعجاب، إذ يتحوّل إلى موقف نقدي ضمن بنية القصيدة نفسها. فالشاعر الحديث "يستنطق المتنبي لا ليستعيده، بل ليضعه أمام مرايا العصر، متسائلًا: ماذا لو كنت بيننا اليوم؟"(فضل صلاح، ١٩٩٢: ١٤٥). فالمتنبي لم يعُد رمزاً تراثيًّا فحسب؛ بل شريكًا في التفكير والتمرد وإعادة إنتاج المعنى واللفظ.

كما أن هذا الحضور المتكرر للشخصية، يدخل في إطار ما يسمى بـ(التناص الحواري) ، إذ يصبح الصوت التراثي جزءاً من بناء النص لا مجرد زينة خطابية (مفتاح محمد،١٩٩٢م: ١٨٨- ١٨٩) وبهذا يكون المتنبي حاضناً لقلق الشاعر العراقي، ومحرّكًا للغة الشعر في مواجهتها لعصر الانكسار. وهذا ما نلاحظه عند الشعراء العراقيين المعاصرين من اصحاب قصيدة التفعيلة، ممن استدعوا المتنبي وحاوره في قصائدهم، منهم الشاعر أجود مجبل في قصيدته: (نقوشٌ على حقيبةِ المُتنبي) قال فيها:

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

ذاك الذي

في بَراري صوتهِ ساروا

واستأذنتهُ قُبيلَ الماءِ أنهارُ

لم يعرفوا وجدَ عينيه اللتين هُما زَقورتان

تعرَّتْ فيهما النارُ

هناك إذ أنجبتهُ الشمسُ ذات ضُحىً

حطّت على شجر التأريخ أطيارُ...

كما (على قلق) تخضرُ أشجارُ

لم يقتبس من أعالي حزنِهِ

وطناً غير الرحيلِ

ولم تومِض لهُ دارُ...(مجبل أجود، ٢٠٠٩م: ٨٥)

أفتتح الشاعر أجود مجبل قصيدته على رؤية شعرية يتشابك فيها التاريخ والاسطورة، والهوية والصوت الشعري، في محاورة مع المتنبي ورمزيته الشعرية. إذ بدأ بإظهار هالة المتنبي، بوصفه شاعراً ذا صوت شعري هائماً حراً وعظيم التأثير فيمن حوله. ثم صور الشاعر عيني المتنبي بأنهما زورقتان، تشبهان الأبراج البابلية القديمة، وفيهما وهج الحضارة القديمة والمعرفة المتلهبة.

وانتقل إلى تصوير نشأة المتنبي وشعره الخالد في التاريخ، وقلقه الدائم في الحياة، مقتبساً بصورة غير مباشرة قوله:

على قلقٍ كأنّ الرّيحَ تَحْتِي أُوجّهُها جَنُوباً أو شَمَالاً

(العيساوي علي، ٢٠٠٥م: ١١٥)

فالشاعر هنا استدعي بيت المتنبي بطريقة ذكية دون أن يذكره حرفياً في البداية؛ لكنه بني عليه وفسره شعرياً، وكأنه يقول: إذ هذا القلق لم يكن مجرد شعور؛ وإنما حالة وجودية مستمرة، جعلت المتنبي لا يعرف وطناً غير الترحال، ولا مأوى له إلا صوته وشعره الخالد.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

واكمل الشاعر أجود مجبل قصيدته في محاورة المتنبي واستدعائه في القصيدة ذاتها، إذ يقول:

يا أحمدَ القلبِ،
هذي الأرضُ أرمَلة وحيدةٌ
لمْ يزُرها بعدُ آذارُ
أترُكْ يديكَ عليها موجتين،
فلمْ يرجعْ من البحرِ يا مولايَ بحّارُ
وفيكَ نامَ سؤالٌ لا نهارَ لهُ
وصوتُكَ الرحْبُ
بالا وقتِ مَوارُ
حَمَلتَ غربَتَكَ الكبرى
على حُلمٍ
رأيتّه وطناً ينأى وينهارُ
وعُدْتَ كالرمْحِ مفتوناً بقامتهِ
ما بينَ موتين
عَبْرَ البيدِ تَختارُ (مجبل أجود، ٢٠٠٩م:٨٦)

أكمل الشاعر المعاصر أجود مجبل محاورته مع المتنبي، باستدعائه مباشرة وو صفه بـ (أحمد القلب) وهي دلالة على أن المتنبي ليس مجرد شاعر في ذاكرة الأدب العربي؛ بل هو يسكن وجدان الشعراء الذي يعدونه أهم سلاطين الشعر من الأولين والآخرين.

فالشاعر يبوح بما يجول في صدره عن طريق مخاطبة المتنبي فيشبه الأرض بالأرملة التي لم يمر عليها آذار – وهو شهر الخصوبة والنماء – وهي كناية عن حالة من القحط أو اللا جدوى التي يكابدها الكوكب. وهذهِ انتقالة استعطافية يطلب من المتنبي أن يترك يديه كموجتين على هذه الأرض لعلها تجلب البحار الذي بقي يمخر عباب التيه ولم يعد للأرص.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

ثم تحدث الشاعر عن صوته الرحب الذي لا يقاس بالزمن، وعن غربته التي حملها كحلم كان يظنه وطناً، لكنه تلاشى. ولكن الشاعر استدرك وعاود ليستجمع قواه الإدراكية وتحدث عن عودة المتنبي الذي يمثله ويتقمصه، فتحدث عن عودته مفتونا بقامته وشموخه وهو ينتقي موتاً من موتين لا ثالث لهما بين البيد.

وبهذا فالشاعر أجود مجبل خاطب المتنبي في هذهِ الأسطر الشعرية المتنبي خطاباً جميلاً، كأنه ابن أو صديق هذهِ التجربة الشعرية. وهو أيضاً استحضار وجداني لروحه وألمه، وتعاطف مع غربته، وقراءة لمصيره. وكأن الشاعر أجود مجبل رأى في المتنبي الممثل لمعاناة المثقف الحقيقي.

ثم أختتم الشاعر العراقي المعاصر أجود مجبل حديثه ومحاورته مع أبي الطيب المتنبي في القصيدة ذاتها، بقوله:

ها أنتَ عيدٌ لكلّ العائدينَ إلى أجسادِهِمْ

ومَزاراتٌ

وزُوّارُ

وأنتَ عُنقودُ ضَوْءٍ في دفاترِهِم

مَرَّت شُموسٌ به شتى

وأقمارُ

الخَيلُ كوفيّةٌ

والمُلتقى حَلبٌ

وكلُ دربٍ إليكَ الآن زحارُ

إملأ كؤوسَكَ وأشرَبْ مِنْ تَوهُجها

نَخْلٌ نَداماكَ

والناياتُ سُمّارُ مجبل أجود، ٢٠٠٩م: ٨٥- ٨٧)

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

صور الشاعر في هذهِ الأسطر الشعرية المتنبي رمزاً خالداً، كالعيد الذي يحتفل به العائدون إلى ذواتهم، وكأن عودتهم لحقيقتهم لا تكتمل إلا عن طريقه. فهو مزار للذاكرة والروح، ومصدر إلهام لا ينطفئ.

ثم أظهر الشاعر رمزية الخيل والكوفية، وحلب في إشارة إلى التاريخ والأماكن والمعارك التي ربطت بالمتنبي، وكأن الطريق الآن يبدأ وينتهي ويعود إليه مرة أخرى في حلقة متسلسلة دائمة. ثم أختتم بدعوته إلى أن يملأ كؤوسه من توهجه الشعري العظيم.

وعبر ما سبق نجد الشاعر العراقي أجود مجبل في قصيدته: (نقوش على حقيبة المتنبي) وقف إلى جانب المتنبي و حاوره حوارَ مخلص، لاناقد، واستدعائه لا ليُحاسبه كما يفعل الشعراء والنقاد؛ بل ليحتفي بروحه ويرثي حاله، ويمجد أثره، ويصادق قلقه، ويحوله إلى معنى باقٍ في وجدان الشعر العربي بصورة العامة، والشعر العراقي المعاصر خاصة.

وظهر الشاعر حسين القاصد من الشعراء الذي حاوروا المتنبي واستدعوه في قصائدهم، وذلك في قصيدته التي بعنوان: (جدل بيني وبين أبي الطيب المتنبي)، قال فيها:

لو كنتَ في زمني وصوتك أعزلُ
يشدوك قمحاً واشتعالك منجلُ
ما كنت تطلب سلّماً من غيمةٍ
وعليك آلام الطفولة تهطلُ
ما كنت تتركني دموع قضيةٍ
كبرى وهمّاً سائباً يتجولُ
ادريك موجوعاً. أبي. دع عنك صحةَ جاهلٍ واصدحْ فَداؤك أنبلُ
لا تغلق الصحراء،
خيلي هددت وجعي
وها هو من فمي يترجلُ
أنا بعض فوحِك

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

طالما داعبتُ أنفَ خطيئتي

فالتاع فيّ قرنفلُ

فبأي سوسنةٍ أدقُّ الوصلَ (القاصد حسين، ٢٠١٩م: ١٠٣)

جسد الشاعر حسين القاصد في هذه القصيدة حالة وجدانية مشوبة بالحزن والألم والأسى، إذ ظهر فيها انفعاله العميق اتجاه الواقع المعاصر، وأستدعى شخصية المتنبي بوصفها رمزاً شعرياً خالداً، محاولاً عبر هذا الاستحضار التعبير عن ألمه الذاتي والمجتمعي. وظهر المتنبي في هذهِ القصيدة وكأنه على قيد الحياة، وموجود في زمن الشاعر، يشاركه الهم والخذلان، ويُغني للحقيقة بصوت أوضح، في وقتٍ تتساقط فيه القضايا المجتمعية وتضيع الملامح.

وقد حاور الشاعر أبي الطيب حوراً مباشراً صريحاً، اتخذ طابعاً نقدياً ووجدانياً معاً، إذ لم يكتفِ بمدحه وتمجيده والانبهار به فقط؛ وإنما واجهه بلغة تعبيريةٍ تمزج بين العتاب والانتماء. فجعل منه شريكاً في التفكير والشعور، يشاركه أحزانه وأفراحه لا مجرد رمز تاريخي (مفتاح محمد، ١٩٩٢م: ١٨٨.

ثم أكمل الشاعر حسين القاصد محاورته مع المتنبي في القصيدة ذاتها بقوله:

قل لي:

أنت موجود هنا؟

هل أدخلُ

أوصيتني ألا أعيشَ جنازةً

أنا في سجلات الحيا مؤجلُ

أنذرتني للنوح؟

لستُ حمامةً

حتى الحمام أبي ينوح ويهدل...

أنا لا أريد معانياً تستسهل

لو عدت في زمني وصوتك معولُ

لي منك في أهزوجة الليمون

ما ينتابني

طعم لذيذ... حنظلُ

أنجبتَ موتك بالقصيدة

بعد أن أيقنت أن قصيدة قد تقتل

ونزفتَ للتاريخ سكّرك الذي يجري سناً

حيث المذاق مغفلُ

وزرعتَ وجهك في البقاعِ

وأصبحت مدناً قصائدك التي لا تذبل

والكل يهتف من هنا؟؟؟؟

لا...

من هنا؟؟؟؟

فأراك من صيحاتهم تتسلل (القاصد حسين، ٢٠١٩م: ١٠٥)

اكمل الشاعر حسين القاصد قصيدته بتأمله بمصيره الشعري والإنساني، عبر مواصلة حديثه المتخيل والمباشر مع المتنبي، فيسأله بتوتر: هل أنت هنا؟ هل أدخل؟ وكأنه يسأل عن مكانه في الحياة والموت، أو يطرق باب الخلود الشعري. ويفصح عن شعور بالخذلان والتأجيل، فكأن مصيره مؤجل إلى ابعد الحدود، ويستنكر انتمائه للسهولة والوضوح في ايراد المعاني، ويستنكر السطحية منها والبكائيات المتكررة.

وواصل استحضاره تجربة المتنبي الشعرية، وكيف أن الشعر كان سبباً في موته، لكنه كان باباً لخلود صوته في جميع بقاع الأرض على مر العصور، حتى يبدو وكأنه يتسلل من بين الجماهير. فالمتنبي هنا رمز لمن يموت جسداً؛ لكنه يحيا أثراً وخلوداً وشعراً.

ويبدو لي أن الشاعر حسين القاصد رأى نفسه في مسار شبيه بمسار المتنبي، فكلاهما يكتب من أعماق الألم، وكلاهما يدفع ثمن الكلمة والموقف. إلا أنه لا يستنسخ تجربة المتنبي؛

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وإنما يحاوره ليكشف عبره عن مواقفه ومخاوفه وهواجسه الشعرية والذاتية الخاصة به. وهذا ما يعرف بالتناص الحواري، إذ يكون استدعاء الشخصية التراثية لا باب التمجيد؛ بل ليكون أداة لإنتاج معنى جديد عبر المقارنة والتجاوب بين تجربتين مختلفتين(باختين ميخائيل، ١٩٨٧م:٢٩).

ثم نهى الشاعر حسين القاصد قصيدته ومحاورته مع المتنبي بقوله:

فاخلع فم التجوال واعلم إنما
بغداد لحنٌ سرمدي مذهل
بغداد تلبس حليها مفتونةً
بفم إذا انتعش القتال يهلهل
ميزانهم في كفتين وكلهم
في كفة لكنما هي أثقل
هل يعلم التاريخ أن حروفه
صوفٌ وأن يداً لنخلي تغزل
وطني سماء الأرض،
فاصلةٌ دمي...
بين السماء وبين ما هو أسفل (القاصد حسين، ٢٠١٩م: ١٠٧).

أختتم الشاعر حين القاصد قصيدته بتمجيد بغداد، فوصفها بأنها لحن أبدي، تزدهي بجمالها حتى في أوقات الحروب، بل وشاركها في القتال بشموخ وبهاء. فظهر تفوق بغداد، وميزانها الراجح في التاريخ والحضارة، ووصفها بأنها تحيك التاريخ من خيوط أصالتها. أما الوطن فيراه الشاعر سماء الأرض، ورأى دمه فاصلاً بين الانحدار والسمو، وبين المجد والانحطاط.

وينهي القاصد محاورته مع المتنبي بالانتصار للوطن والدفاع عنه، ورؤيته منارته العليا التي يقتدي بها، ويظهر تمسكه بها والاعلاء من شأنها أمام من ذم الوطن وانتقص منه.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وبهذا فالشاعر المعاصر حسين القاصد يقف موقف المحايد من المتنبي، يبدأ في أول أبياته باستحضاره كرمز شعري كبير، فيستعير صوره وألفاظه، مما يدل أعجابه وتأثره به. ثم انتقل إلى التشكيك بصمته، لو كان حاضراً في هذا الزمن، وكأنه يسأله: أين صوتك اليوم؟ لم اسمع لكِ شيئاً؟ وبهذا فهو انتقل من التأييد إلى المحاكمة، وتخذ موقفاً نقدياً سلبياً لسكوت الشعراء ومنهم المتنبي عن واقع بغداد المأساوي، وواقع الوطن بصورة عامة. وفي النهاية يكون محايداً له في الدفاع عن بغداد، فيجعل منها رمزاً للسمو، ويجعل من صمته موقفاً بطولياً.

فالقاصد وقف ضد المتنبي في المضمون، وإلى جانبه في البناء والأسلوب، في محاورة شعرية تنتمي إلى تقاليد قصيدة التفعيلة القائمة على التناص والمساءلة.

ويعد الشاعر نوفل الحمداني بمن الشعراء الذين حاوروا المتنبي وذلك في قصيدته التي بعنوان: (صرخة)، قال فيها:

رأينا الشعرَ يبدلُ زيتونيا... بأمور أخرى

صدق الإخشيد!!

فما زلت فوقَ العالم شمسٌ سوداء..

وما زال المتنبي

بوقاحتهِ يكذب ملءَ الآفاق(الحمداني نوفل، ٢٠٠٩م: ٦٠- ٦١)

تنتمي هذهِ الأسطر الشعرية إلى تجربة شعرية تنظر إلى الشعر من زاوية ثائرة أو سوداوية. فالشاعر نوفل الحمداني بدأ بتصوير الشعر وكأنه يبدأ بالجمال (اللون الأخضر) ثم تحول لمسارات أخرى مغايرة. ثم تحدث عن الأخشيد وقوله الصادق على عكس ما قاله المتنبي فيه، وهنا تكمن المفارقة؛ لأن المتنبي هجا كافوراً بشدة، على عكس الشاعر المعاصر الذي قلب الصورة، وجعل الأخشيد صادقاً والمتنبي كاذباً . ثم ننتقل إلى اظهار صورة شعرية قوية تشبه الذات الإنسانية بالشمس السوداء، وهي أيضاً مفارقة بين النور والظلام. واختتم بهجوم مباشر على المتنبي بوصفه بأبشع الصفات وهي الوقاحة والكذب.

وقد استدعى الشاعر المتنبي بصفته رمزاً للشعر العربي والفخر والكبرياء، لكن بدلاً من أن يمدحه كما يفعل الشعراء عادةٍ، انقلب عليه وواجهه بلغة حادة، فوصفه بالكذب والوقاحة. وهنا تتحقق المحاورة النقضية التي تجعل من المتنبي سلطة رمزية مهمة، ثم تقويضها لإعلان صوتٍ شعري جديد، يرى أن المتنبي لم يعد صالحاً لأن يكون معياراً للصدق أو البطولة.

وبهذا فالشاعر نوفل الحمداني بمحاورته المتنبي واستدعائه ونقضه يختلف بصورته عنه بكونه مجدٍ للحكمة والرفعة والرقي، وجعله رمزاً للزيف الشعري، والتضليل التاريخي، فالحمداني يتبنى رؤية نقدية معاصرة للموروث، ويستدعي المتنبي وكافور الأخشيدي كوسيلة لهدم التصورات المعروفة، وبناء موقف جديد يرى أن الشعر قد يكون كذباً متقناً، وأن التاريخ ليس صادقاً دائماً.

ويعد الشاعر شاكر الغزي أحد الشعراء الذين استدعوا المتنبي وحاوروه، وذلك في قصيدته التي بعنوان: (تِرْبُ الصَّدى... وربُّ المنافي) التي كتبها إلى المتنبي في ملكوته (الغزي شاكر، ٢٠١٧م: ١٢١)، قال فيها:

ومُسافرٍ... تعِبَتْ حقائبُ صبرِهِ
ممّا تُخبّئُهُ مطامحُ صدرْهِ
يمشي على قلقٍ
كأنَّ الريحَ يرْكبُها
فتعثُرُ خطوتاه بمُهْرِهِ
يمشي...
وكوفتُهُ النبيَّةُ خلفَهُ خرجتْ
تُنشِّرُ شَعْرَها في إثْرِهِ
قطَعَ المتاهةَ، زادُهُ خُيلاؤهُ
وعصاهُ: قُبّرةٌ غفتْ في شِعْرِهِ
ينأى... وكأن اللهُ مُتهماً بِهِ (الغزي شاكر، ٢٠١٧م: ١٢١- ١٢٢)

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

افتتح الشاعر شاكر الغزي قصيدته بصورة ملامح مسافر متعب ومرهق، اثقلته طموحاته، حتى صارت حقائب صبره تعباً لاحيلة فيه. وهو تصوير حديث للطموح الإنساني، يضاد إلى ما ذهب إليه أبي الطيب المتنبي في قوله:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

(العيساوي علي، ٢٠٠٥م: ١٨٧)

فبينما تعامل المتنبي مع الطموح كقيمة عليا مجيدة، اظهرهُ الشاعر العراقي شاكر الغزي عبئ خانق. وهذا النوع من التناص يسمى بالتحوير التناصي، إذ يعاد تشكيل المعنى السابق بإطار جديد (فضل صلاح،١٩٩٢م: ١٣١) ثم حاكى الشاعر هذهِ الصورة بمشهدٍ من القلق الوجودي، إذ تنقلب المعادلة من السيطرة على الطبيعة إلى الخضوع لها، متأثراً بقول المتنبي:

على قلقٍ كأنّ الرّيحَ تَحْتِي أُوجّهُها جَنُوباً أو شَمَالاً

(العيساوي علي، ٢٠٠٥م: ١١٥)

الا أن الغزي لا يرى التعب ناتجاً عن المجد؛ وإنما هو ارتباك وجودي وحالة قلق مستمرة توجه الشاعر يميناً ويساراً. ثم وظف الشاعر هنا الكوفة؛ لأنها المكان الذي ولد فيه المتنبي، ويشير إلى نبوءته الحية التي تلاحقه في كل مكان. لكن المتنبي جعل من الكوفة كرمز للغربة والألم، إذ قال في قصيدته: (غريب كصالح في ثمود):

أنَ في أُمةٍ تَداركَها اللهُ غَريبٌ كصَالحٍ في ثَمودِ

(العيساوي علي، ٢٠٠٥م: ٢١)

فالشاعر العراقي المعاصر جعل من الكوفة كائن حي، يتألم لفقده لا يطرده ثم اظهر الغزي خيوله لا كسلاح للتفاخر؛ وإنما كمفارقة تؤلمه، فاستبدل العصا التي هي رمز للسيطرة بطائر ناعم قبره. وهذا ما يسمى ب "تحويل القوة إلى رمز شعري هش"(أبو ديب كمال، ١٩٨٦م: ٢١٢) ثم صور ذاتاً وجودياً ترى في نفسها ذنباً حتى امام الله سبحانه، وهذا ما يسمى بخطاب التيه الوجودي، إذ تتحول الذات من فاعلة إلى متهمة (حموده عبد العزيز، ٢٠٠٣م: ٢٢٣-٢٢٤).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وبهذا فأني أرى أن الشاعر شاكر الغزي يصور المتنبي وحالته واضطرابه الشديد وما يعانيه من ألم وقلق، جراء سفره الكثير واهتمامه بالنبوة.

ثم يكمل الشاعر الغزي قصيدته في محاورته للمتنبي واستدعائه، بقوله:

في أنّهُ: أعلى بنايةَ قَدْرِهِ
أصغى لهَدهدةِ الحَمامِ، فرابهُ
أنْ لا هديلَ مُخبَّأٌ في ثغرِهِ...
هو صائدُ البيضِ الشواردِ
لم تنم عينا سواهُ
وكُلُّهنَّ بأَسرِهِ
هو أحمدُ الشعراءِ،
ما حُمِدَتْ نبوءةُ شاعرٍ
لم يقتبسْ من جمْرِهِ
أبهى الملوكِ تحلَّقوا من حولهِ
كي يُنقشوا جُمَلاً بهامشِ سطْرِهِ
لم يقترفْ شجرَ القصيدةِ
مُثخناً بالمُمْرعينَ..
سوى لغَيرةِ غيرِهِ (الغزي شاكر، ٢٠١٧م: ١٢٢- ١٢٣)

أكمل الغزي محاورته مع المتنبي، فنسج حواراً شعرياً بدأ من موقع المتأمل الحائر، ثم ارتفع بالتدريج إلى مقام الاعتراف والتقديس، فصوره قمة شامخة لا تطال، ثم رسم محاولته في الإصغاء إلى السلام، لكنه يُفاجأ إن هذا السلام لم يعد موجوداً في محيطه وواقعه، في ايحاء رمزي إلى اغترابه الشعري والوجودي وخيبة أمله.

ثم وصفه ب (صائد البيض الشوارد) وهو اقتباس مباشرة من تعبيرات المتنبي، إذا قال:

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ

(العيساوي علي، ٢٠٠٥م: ٢٦٢)

وأضاف إليها، أن لا عين سهرت من اجل الشعر سواه، في إشارة إلى تميزه وبراعته وقوته الشعرية التي فاقت جميع الشعراء. إذ بلغ التقديس مداه حين وصفه بقوله: (أحمد الشعراء) في تلاعب لغوي ربط بين اسم المتنبي الحقيقي (أحمد) وبين معنى الحمد، في إشارة واضحة إلى نبوءته الشعرية والدينية.

ثم قارن الشاعر شاكر الغزي في هذا النص بين مقام المتنبي ومقام الملوك، لكن بطريقة مخالفة معكوسة، فالملوك يحومون حوله ليكونوا هوامش في نصه، وذلك دلالة على أن سلطته الشعرية تفوق سلطتهم السياسية.

وختتم الشاعر المعاصر هذا النص بمحاورة الشعراء المقلدين الذين عدموا إلى التكرار والاجترار، بصورة نقدية غير مباشرة، مدفوعين بالغيرة من أبي الطيب المتنبي. مما جعل الغزي المتنبي يبدو وكأنه الوحيد الذي كتب الشعر من غير زيف أو دافع مرضي.

وبهذا فأن الشاعر العراقي المعاصر شاكر الغزي قد استدعى المتنبي بصورة فنية غير مباشرة في هذا النص، وذلك بتضمين عباراته: (الشوارد، نبوءة شاعر...)، وفاضل بينه وبين غيره بمحاورته بموقع الطالب المعجب بأستاذه، فيبدأ بتساؤلات وجودية تنتهي بقاعة أن المتنبي وحده هو الأصل، والبذرة الأولى النافعة لكل تجربة شعرية تأتي بعده. وهكذا فإن الغزي في هذا النص جعل من المتنبي شخصية حاضرة فكرياً، تحرك السؤال الشعري إلى هذا اليوم.

ثم اختتم الشاعر شاكر الغزي قصيدته بمحاورة المتنبي واستدعائه بقوله:

هوَ صادحُ الأصواتِ،

من أَصدائِهِ:

كم شاعرٍ حارَ البيانُ لأَمرِهِ

هو خَلَوةُ الرهبانِ

إذ نخلُ السَّماوةِ

ما تنبيَّنَ سعفُهُ من تَمرِهِ

هو مَعمدانُ دمٍ،

وماءُ قداسةٍ

لمُعَمَّدينَ على شواطئِ نَهْرِهِ

كم أَتقنتْ حبلَ الوشايةِ أوجهٌ

شاختْ ولم تَكْهَنْ غَيابةَ بئرِهِ...

في كفِّهِ ماءُ الغمامِ ونارُهُ اجتمعا

وما افترقتْ أناملُ عَشْرِهِ...

بشَرٌ نبوءتُهُ الكلامُ... وعُشْرُهُ

فَسرُ أبن جنّيٍ يحارُ بِفَسرِهِ (الغزي شاكر، ٢٠١٧م: ١٢١- ١٢٥)

مجد الشاعر شاكر الغزي في هذا النص المتنبي تمجيداً روحياً وفلسفياً، مقدماً اياه كظاهرة شعرية كظاهرة شعرية خارقة، تتجاوز المألوف من الحدود البشرية، فبدأ بوصفه بأنه صادح الأصوات، في إشارة إلى صدى صوته الشعري لدرجة أن الكثير من الشعراء وقفوا حائرين أمام أثره، لا يستطيعون تفسير اشعاره وعبقريته(الجرجاني عبد العزيز، د. ت: ١١٢).

ثم شبهه ب (خلوة الرهبان) في إيحاء إلى عمقه الروحي وسكونه الظاهري. ونتقل إلى تصويره ك(معمدان) يجمع بين الدم والماء المقدس، وهي صورة رمزية مسيحية للمعمورية؛ ولكن الغزي حولها إلى معمورية شعرية على ضفاف دجلة أو (نهر الخلود). فمحاورته هنا قائمة على تجسيد المتنبي كرمز للرؤيا الشعرية الصوفية، أي أن الغزي يجعله قدوة عليا لا تفك رموزه بسهولة تماماً كالرهبان في خلواتهم (أبو ديب كمال، ١٩٩٤م: ٢٩٣- ٢٩٤).

ثم لَمح الغزي إلى الشعراء والنقاد الذين حاولوا الإساءة إلى بالمتنبي، أو الحط من قدره ومكانته العالية، باستعمال حبل الوشاية، بكنهم فشلوا وبقى المتنبي لغزاً رغم خصومه. وهذهِ

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المحاورة تنطوي على الدفاع عن المتنبي عبر تصوير الخصم بأنهم متآمرون، لكنهم فشلوا في فهمه أو النيل منه(حسين طه، د. ت: ٥٥).

وفي ذروة المشهد، جمع الغزي المتنبي بين ضدين: ماء الغمام وناره، في كفيه، كناية عن مزجه بين الشدة واللين، بين السياسة والشعر، بين الرحمة والقوة. وهذا التوتر بين الأضداد هو ما جعل شعره حياً ومعقداً. وهذهِ المحاورة قامت على تصوير المتنبي ككائن منفرد من نوعه، يتجاوز التصنيفات، ويجمع كل التضادات. مما جعل هذه الصورة تنتمي إلى الأدب الصوفي والرؤيوي، إذ يجسد العارف أو الإمام بصفات مضادة (ادونيس، ١٩٩٢م: ١٠٩- ١١٠).

ثم اختتم الغزي النص بوصف المتنبي بأنه (بشر نبوءته الكلام)،أي أن جوهر المتنبي هو النطق بالكلمات النبوئية التي تفوق الإدراك، وأضاف إليها أن الجزء اليسير من شعره يستعصي تفسيره حتى على ابن جني، أعظم نحويّ ومحلل لشعر المتنبي، في دلالة على عمق لغته وغموض نبوءته الشعرية.

وبهذا فالشاعر شاكر الغزي حاور المتنبي في هذا المقطع عن طريق استدعاء شخصه لا النص فقط، إذ استدعى شخصه بوصفه أسطورة شعرية وروحية، فجعل المتنبي رمزاً فوق البشر. ثم استدعى شخصية ابن جني، وهو شارح ديوان المتنبي وصديقه؛ ليدل على تعقيد شعر المتنبي الذي عجز حتى أعلم الناس عن الإحاطة به.

وعبر ما سبق نجد أن هذه القصيدة محاورةً فنية عميقة مع المتنبي، لا بمعنى المعارضة أو المفاضلة؛ بل بوصفه النموذج الأعلى للشاعر العربي، الذي تجاوز في بيانه حدود الزمن والمكان، وارتقى بالكلمة إلى مصافّ النبوءة. وقد اتّخذ الشاعر شاكر الغزي منه مرآةً كاشفةً، يعكس عن طريقها قيمة الشعر وقوة الذات المفردة التي تتحدى مصيرها.

ففي كل مقطع، تتجلّى روح الإجلال والتبجيل؛ فالصور لا تُستعار لتهديم صورة المتنبي؛ وإنما لبنائها من جديد على أساسٍ أكثر إنسانية وأشد دهشة. إذ بدا المتنبي في القصيدة صائداً للمعاني الشاردة، وناسجاً لنبوءة الشعر، وصوتاً لا ينطفئ أصداؤه. وهذا الموقف، الذي يفيض

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

بالمحبة الفنية والدهشة الفكرية، يؤكد أن الشاعر لم يقف يوماً ضد المتنبي؛ بل معه، ومع إرثه الممتد، ومع انبهار الشعراء به على مرّ العصور.

لقد كانت هذه المحاورة، في جوهرها، استدعاءً للمتنبي لا لكي يُدان أو يُناقض؛ وإنما لكي يُبعث من جديد، في ضمير الشعر العربي المعاصر، شاهداً على أن اللغة حين تبلغ ذروتها، فإنها تنجب مثل المتنبي، الذي يبقى، كما وصفه الشاعر (بشرٌ نبوءتهُ الكلام).

عبر ما سبق نستنتج: إن المتنبي قد شكل لدى شعراء قصيدة التفعيلة رمزاً للكبرياء الشعري، والذات المفكرة، والبطولة الفردية، فاستدعوه بوصفه نصاً مفتوحاً يصلح لإعادة القراءة وفق تحولات الوعي السياسي والوجودي الحديث. فبعضهم استدعى صوره وتراكيبه الشعرية في تناص مباشر أو إيحائي، في حين حاوره آخرون بوصفه نموذجاً إنسانياً، يُعيدون إنتاجه ضمن رؤاهم الخاصة.

وبهذا فأن استدعاء المتنبي في قصيدة التفعيلة ليس فعلاً زخرفيًّا، بل هو فعل جمالي وفكري حواري، يشير إلى رغبة الشاعر في التواصل مع رموز الماضي لا للانبهار بهم فحسب، بل لزحزحة حضورهم، ومحاورتهم بوعي حداثي، يعيد بناء القصيدة على أساس من القلق المعرفي والمساءلة الفنية.

الخاتمة

الحمدُ للهِ أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على مُحَمَّد وآله وصحبه ومن ولاه، بعد الرحلة الشاقة العلمية في البحث في امهات الكتب، وفي رحاب موضوع شيق (أثر المتنبي على الشعراء العراقيين المعاصرين للمدة ٢٠٠٣إلى ٢٠٢٣م دراسة تحليلية في نماذج مختارة) لم يبقَ إلا أن نقطف ثمار تلك الرحلة بجملة من النتائج اذكر منها:

١- إن التراث العربي ولاسيما تراث المتنبي، ما زال يشكل مرجعاً فنياً وفكرياً للشعراء العراقيين المعاصرين، إذ يمنحهم القوة اللغوية والرمزية اللازمة للتعبير عن قضاياهم.

٢- اجاد الشعراء العراقيون المعاصرين عموماً فيما ضمنوا من شعر المتنبي بصورة خاصة، فقد جاءت اشعاره وقصائده ملائمة لمشاعرهم وقصدهم؛ وذلك عبر السبك الجيد الذي

ظهر عليه الشعر في صورته الجديدة الجميلة، وكأن شعر المتنبي قد وجد مكانه في الشعر العراقي المعاصر وسبك سبكاً واحداً، وهذا ما ظهر عبر استقراء ذلك التضمين سواء تضمين الألفاظ أم المعاني أم التراكيب في الشعر العراقي المعاصر.

٣- حاورَ شعراء القصيدة العمودية المتنبي من مواقف مختلفة، فبعضهم تبنى موقف الناصر والمؤيد، مستدعين شخصيته وصوره للدفاع عن قيم الكبرياء والكرامة، فيما أتخذ آخرون موقف الضد، محورين صوره وأفكاره لنقد الموروث الثقافي أو التعبير عن رؤى معاصرة، مما أضفى على نصوصهم طابعاً حوارياً يعكس تعددية الرؤى.

٤- انطلق شعراء القصيدة العمودية في محاورتهم للمتنبي من وعيٍ بثقله الشعري وهيمنته البلاغية، فاستعادوا مفرداته القوية، وصوره المركّبة، ونبرته الذاتية المتعالية، ولا سيما في موضوعات الفخر والذات والبطولة والحكمة. غير أنّ هذه الاستعادة لم تكن تقليدًا محضًا؛ بل جاءت غالبًا محمَّلة بمحاولة موازنة الذات الشاعرة بالذات المتنبّية، إما عبر مجاراتها أو مساءلتها أو تفكيك خطابها.

٥- تعامل شعراء قصيدة التفعيلة مع محاورة المتنبي بأسلوب أكثر انفتاحاً وابتكاراً، إذ وظفوا صوره وأساليبه في صياغة نصوص تمزج بين التراث والحداثة، مستثمرين شخصيته كمبدع قوي ذو دلالات رمزية متعددة، وأعادوا إنتاج صوره في فضاءات تعبيرية تسمح بتعدد الأصوات وتنوع القراءات، معبرين عن طبيعة القصيدة كفضاء شعري حواري متجدد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أبو ديب كمال، ١٩٨٦، الرؤية وتقنياتها في الشعر العربي المعاصر، د. ط، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات.

٢. أبو ديب كمال، ١٩٩٤م، الرؤيا والإبداع الفني في الشعر الجاهلي والمتنبي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات.

٣. أدونيس، ١٩٩٢م، الصوفي والشاعر، د. ط، دار الساقي.
٤. باختين ميخائيل، ١٩٨٧م، أسلوبية الرواية، د. ط، بيروت، دار توبقال.
٥. الجرجاني عبد العزيز، د. ت، الوساطة بين المتنبي وخصومة، د. ط،، مطبعة عيسى.
٦. حسين طه، د. ت، مع المتنبي، ط٨، دار المعارف.
٧. الحمداني نوفل، ٢٠٠٩م، خواطر عبر مسافات قاحلة، ط١، النجف الأشرف، دار الضياء للطباعة والتصميم.
٨. حمودة عبد العزيز، ٢٠٠٣م، الخروج عن التيه، د. ط، الكويت، علم المعرفة.
٩. العيسلي علي، ٢٠٠٥م، ديوان المتنبي، ط٢، بيروت – لبنان، منشورات الأعلمي للمطبوعات.
١٠. الغذامي عبد الله، ٢٠٠٠م، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، د. ط، بيروت، المركز الثقافي العربي.
١١. الغزي شاكر، ٢٠١٧، أتلاشى كظِلِّ أبي، ط١، لبنان، منشورات ضفاف.
١٢. فضل صلاح، ١٩٩٢م، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط١، القاهرة، دار الشروق.
١٣. القاصد حسين، ٢٠١٩م، الأعمال الشعرية، ط١، بغداد – العراق، وزارة الثقافة والسياحة والآثار.
١٤. مجبل أجود، ٢٠٠٩م، مُحتشدٌ بالوطنِ القليل، د.ط، بغداد، دار نخيل للطباعة والنشر.
١٥. مفتاح محمد، ١٩٩٢م، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، د. ط، بيروت، المركز الثقافي العربي.